

البَابُ الرَّابِعُ

خادم الخدم!

obeikandi.com

الكيك لفطور العصاير !

- كان الحكيم يجلس فى صالة البيت ينتظر قدوم منصوره !
- إما أنا وإما هو فى هذا البيت !

وتأتى علاقة توفيق الحكيم بمديرة بيته « منصوره » لترسم لنا صورة نادرة لارتباط عجيب امتد منذ شباب الحكيم وحتى وفاته حتى صارت « منصوره » جزءاً من بيته وفرداً من أسرته ، خاصة وأنها تربت من قبل فى بيت أم توفيق الحكيم التى كانت لديها رغبة شديدة فى أن تأخذ الطفلة « منصوره » ابنة جارهم الطيب الأسطى ، على حمادة ، (الحلاق) ، لتساعدنا فى شئون البيت ، ولكن أمها كانت معترضة :

ياللعيب .. بنتى تشتغل خادمة .. لا يمكن أبدا .

لكن منصوره « الطفلة - الصغيرة ذات السبع أو الثمانى سنوات ، كانت عند حضورها من المدرسة تحب أن تلعب كزميلاتها ، ولم يكن يحلو اللعب لها إلا فى حديقة بيت « أسماء البسطامى » أم توفيق ، التى كانت تشجعها وتحضر لها اللعب والملابس الحديثة، فراقت الحياة «لنصوره» فى هذا البيت فكانت تقضى فيه أغلب نهارها ، ورغم أن أمها كانت تغريها وتقسم عليها اليمين تلو اليمين ألا تذهب إلى بيت أم توفيق ، إلا أنها لم تنب أبداً عن الذهاب إلى هذا البيت ، ولما لم تفلح الصغيرة فى المدرسة شجعها أبوها على الذهاب إلى بيت أم توفيق رغم اعتراض أمها التى قال لها : ابنتنا ستكون هى ابنة أم توفيق .. وبمساعدها لها ستساعدنا ، فقبلت الأم مرغمة ، وطمانتها أم توفيق أن ابنتها ستكون فى عينها ، وستكون بمثابة ابنتها ، فهى لم تنجب بنات ، وستكون كل طلباتها وطلبات أسرتها مجابة .

ونشأت منصوره فى بيت أم الحكيم فى الاسكندرية ، وانتقلت معها إلى قرية « أبو مسعود » بدمهور حيث اشترت أرضاً هناك ، وذات يوم .

ذهبت الطفلة « منصوره » بالقهوة إلى توفيق فانتابها الفزع ، وعادت مذعورة إلى أم توفيق ، تقول لها : ستى . ستى .. البيه بيكلم نفسه ! » ، فقد كان كعادته يجرى حواراً مع نفسه بين أبطال أعماله قبل أن يكتبه على الورق ، ولما عرف بالحكاية ، قام بتهدئة « منصوره » ، وقال لها : هل أنت خائفة منى ؟ .. لا تخافى .. ولن أكلم نفسى بعد اليوم لأجل خاطرک .

وكبرت منصوره ، وازداد اعتماد أم توفيق عليها ، فقد كانت تثق فيها لإخلاصها وأمانتها ، حتى عندما كانت تبعث الرجال لقضاء مصالحها لم تكن تثق فيهم إلا عندما تكون « منصوره » معهم .
تعطيها النقود وتقول لها :

اذهبي معهم وحذار أن يضحكوا عليك ويقولوا لك هات الفلوس .. اجعلي الشراء يتم على يديك .. وادفعي الثمن .. ثم عودي ولا تعطيهم شيئاً .

وعندما أرادت أم توفيق أن تهدي ابنها المقيم بالقاهرة خير هدية ، لم تجد سوى « منصوره » التي تثق في إخلاصها وأمانتها لتكون خير مدبرة لأموال بيت ابنها ، وانتقلت منصوره بعد رفقة ثلاثين سنة ، لترافق توفيق الحكيم إلى آخر حياته دون أن تفكر أن تتركه ، بل إنها حرمت نفسها من الزواج ليس من أجل المرتب الشهري الذي أوصت أم توفيق به في وصيتها لمنصوره ليصبح من حقها مدى الحياة مادامت لم تتزوج ، فهذا مالم يخطر على بال منصوره ، لقد أحبت أم توفيق وأحبتها ، وأحبت توفيق عندما انتقلت إلى بيته لرعايته ، وأحبها توفيق وأغلق عليها وأشعرها بأنها واحدة من الأسرة كعادته في معاملة كل المتصلين به ، ورغم أن « منصوره » وهى اليوم فى مرحلة الشيخوخة

تغلبها دموعها لأنها نسيت أن يكون لها زوج وأولاد يحملون ذكراها ، إلا أنها غير نادمة لأنها أفنت عمرها في خدمة أسرة الحكيم ، التي صارت أسرتها وصار أبناء الحكيم وأحفاده هم أولادها وأحفادها .

وقد كان آخر ما قاله لها الحكيم قبل أن يدخل دخوله الأخير للمستشفى « أنت ربنا سيكافئك يا منصوره لأن أخلاقك عالية ، فأنت مثل البلسم الذى يوضع على الجرح فيلتئم ، أنا لا أنسى وقوفك معى وقعودك بى وتركك لأهلك من أجلى » .

ولذلك عندما كان الحكيم وحده وليس معه سوى « منصوره » كانت تقوم على رعاية شئونه ، وعندما كان يشعر بأنها مرهقة ومتعبة ولا تستطيع القيام من سريرها كان يقول لها « كما أنت ابق فى سريرك لا ترهقى نفسك » ، فتقول له « كيف لا أقوم ولا أحد فى البيت يعد لك طعامك ؟ فيقول لها «ليست هذه مشكلة يكفينى أن أسلق بيضاً أو أقليه أو أى حاجة أكلها لا يهم ولكن المهم راحتك » .

كان الحكيم يحرص على راحة منصوره ويجعلها تشعر كأنها صاحبة البيت يعطيها مصروف الشهر كله ، وكذلك كانت ابنته تفعل مثلها عندما استقرت معه ، فعند أول الشهر يقول لها : كم حسابك ؟ ، فتقول له الجملة كذا ؟ فيعطيها ويقول لها خذى زيادة مثلما تريدين ، وعندما تحتاج إلى نقود أكثر لأن السلع ارتفعت أسعارها فإنها تحمل على كتفها من لا يستطيع أن يرد للمتشفع به طلباً عند الحكيم ، صغيره « محمد » ، فيقول الحكيم لمنصوره ضاحكا « مادمت جنت بمحمد معك فلا بد أن لك طلباً ، اطلبى ما تشائين فلن أؤخر لك طلباً لأن معك الصراف الخاص بك ، كم تريدين ؟ فتقول له : حضرتك عارف الحياة أصبحت غالية وأقل زوجين من الفراخ بتسعة أو عشرة جنيهاً » ، فيقول لها « يعنى مطلوب كم

جنيه ؟ » ، فتقول له مثلاً « ثلاثون جنيها ، فيعطيهما لحفيده « محمد » الذى تحمله على كتفها وهو يقول له « اعطيهم لـ « دده » حسبما ينطق الحفيد الصغير ذو السنة والنصف سنة ، فقد كان بيت الحكيم يستهلك لحوماً ، بـ ١٢٠ جنيهها أسبوعياً ، لأهل البيت ومن قد يزورهم من الأقارب أو المعارف ، عائلة ناجا أو نورا ، أو أصدقاء الحكيم المقربين كالدكتور حسين فوزى الذى كان يزور الحكيم تقريباً كل يوم جمعه ويتناول طعام الغداء معه ، وآخرين كإبراهيم فرج ، وثروت أباظة ، ونجيب محفوظ ، قلة محدودة هى التى كان الحكيم يسمح لهم بدخول بيته فى وقت لم يكن يسمح لأحد بدخول بيته إلا لمثل هذه الطبقة القريبة جداً من أصدقائه ، والذى قد يسمح لهم بأن يأكلوا معه على مائدته لثقتهم أن أحداً منهم أبداً لن يفشى سر كرمه أو ييوح بما يفسد إشاعة بخله المشهورة ، ومن الأجانب من كان يسمح لهم الحكيم بدخول بيته والجلوس على مائدة طعامه ، ومنهم صحفيتان أمريكيتان ، استضافهما وطلب من « منصوره » أن تعدلها « محشى ورق العنب » ، والكوسة ، والملوخية ، ودقية بامية ، وغيرها من أنواع الطعام الذى يحبه الحكيم ولا يأكله ضيوفه فى بلادهم ، وقام الحكيم بتعريف الصحفيتين ، بصاحبة الطعام الشهى الذى أعجبها ، ولما كانت منصوره آنذاك لاتزال متعبة صحياً ، فقد اقترحت عليها الأمريكيتان ، أن تسافر معها للعلاج فى أمريكا وسعودان بها شابة صغيرة ، فقال لهما الحكيم ضاحكاً :

جئتُ للغداء أم جئتُ لتأخذنا منصوره ؟ ! وعندما عولجت « منصوره » اكتشف الأطباء انقلاب فقرة من فقرات ظهرها مما جعلها تشعر بالآلام التى كانت تحس بها ، واقتضى العلاج وضع حزام طبي حول ظهرها ، مما جعل الحكيم يحمل عنها عبء أى شىء يقتضى انحناءها ، ويقول لها عندما تم بالتحامل على نفسها لحمل أى شىء : ابق واقفة كما أنت وأنا

أجىء إليك « وينحنى هو ، مثلاً ليحمل طبقاً أو يضع طبقاً ، حتى لا يرهق مديرة بيته أثناء فترة علاجها .

وعندما أصيبت بشلل نصفى كانت تذهب للعلاج بالجلسات الكهربائية عند طبيب في «الكيت كات»، عاودته مرتين، في إحداها كان إسماعيل الإبن ، موجوداً بالبيت ، وفي المرة الثانية لم يكن بالبيت سوى الحكيم . حين عادت في المرة الأولى كان بانتظارها إسماعيل ولما رآها قال لها مبتهجاً « هيه .. أمى جاءت . أمى جاءت » .

فقد كان يعتبرها في مقام أمه التي ماتت ، ويعمل على راحتها مثل أبيه ، ويقول لها « أحسن علاج لمرضك يا ماما هو عسل النحل .. تأخذين منه ملعقة في الصباح وأخرى في المساء .. إسمعى نصيحتى من أجل خاطرى لو كان لى خاطر عندك » . فقد كان يجبهها ، وهى تجبه ، وتظهو له السمك ، الذى يجبه مها كانت في أقصى ساعات مرضها وآلامها .

أما في المرة الثانية التى عادت فيها من عند الطبيب ، فقد كان الحكيم يجلس في صالة البيت ينتظرها ، على غير عادته في الجلوس في حجرته خشية ألا يسمع دقات الجرس ، وعندما رأى ظلها ينعكس على باب الشقة قام بفتحه قبل أن تدق الجرس .

فقد كان يعتبرها جزءاً من أسرته تنال من الحقوق والرعاية ما يناله أى فرد فيها ، لذلك كان حريصاً عليها ، ولا يفرط فيها ، وعندما كان أحد من أهلها يأتى لزيارتها ، كان الحكيم يتأكد أولاً من كل منهم « هل جئت لتأخذ « منصوره » ؟ فيقول له « لا والله يا بيه أنا ما جئت لأخذها جئت فقط لزيارتها » ، ولكنهم لا يستطيعون أن يمنعوا أنفسهم من أن يقولوا لها فيها بينهم وبينها « ألن تأت إلينا ، تعال وكفى ما مضى من عمر قضيتيه من أجل أسرة الحكيم ، إن بيتنا محتاج إليك وقد أصبح خاوياً بعد موت والدك

وأخويك الاثنين » ، ولكن « منصوره » تظل وفيه ولا تتخلى عن الرجل الذى يفعل من أجلها كل شىء ، ولكنه مع تمسكه بها لم يكن يمنعها عن أهلها ، فيقول لها : اذهبى إلى أهلك وخذى راحتك وشوقك معهم » ، ويحاولون معها لكى تعود ، سواء حينما تزورهم أو يزورونها ولكنها أبداً فقد تعودت أن تعيش فى بيت الحكيم ، إنه بيتها الذى تستريح فيه ، ويحثها الحكيم على ألا تقصر فى حق أى أحد من أهلها حين يزورونها ، وألا تكون محرجة فياًخذها الحياء ألا تقوم بالواجب نحوهم ، ويقول لها « اصنعى لهم أفضل طعام ، لماذا تقومين بالواجب مع الأغراب ، وتقصرين فى حق إختك » ؟ ، بل يصل الأمر إلى حد انفعال الحكيم على « منصوره » لكى « تبحيح » يدها فى إكرام أهلها لأن البيت بيتهم . ويظنون ما شاءوا من الأيام والليالى فى ضيافة الحكيم خلال فترة إقامتهم وتجوالهم للفسحة وزيارة معالم القاهرة .

وحين يكون أولاد أخوات « منصوره » موجودين يعاملهم الحكيم معاملته لأحفاده ، مثلاً « محمود ابن أخى « منصوره » الذى توفيت أمه وعمره خمس سنوات ، كان الحكيم يعطف عليه ولا يتركه يسافر قبل أن يرضيه ، ويقول له مدلاً « لا تسافر » يا حوده « حتى أحضر لك الكتب واللعب » .

لقد كان الحكيم عطوفاً على الكبار والصغار ، حتى الحيوانات والطيور مما لا يجعل منصوره تنساه له أبداً .

لقد كان يشركها معه فى فعل الخيرات ، لتنال معه ثوابها ، فيحثها على « تعبئة » علب اللبن الكبيرة الفارغة ، بالأرز ، والذرة ، لإطعام « العصافير » التى يمتلئ بها جدار « بلكونة » البيت ، فى الصباح الباكر ، بل إن « الكيك » الذى كانت تصنعه « منصوره » كان الحكيم يعطيه

« للعصافير » مما جعلها تشكو إليه تعبها ، وهل هو لإطعامه أم لإطعام
العصافير ؟ .

فيشرح لها الحكيم أن تعبها غير ضائع ، بل إنه رصيدها عند الله الذى
جعلها سبباً لرزق هذه العصافير ، وكذلك كان حنو الحكيم على
« الققطط » ، فقد كانت هناك « قطة » بيضاء تقف على شباك
« المنور » ، عندما يراها الحكيم يطلب من « منصوره » أن تطعمها ،
ولكن عندما كان فى البيت « كلب » شرس وكانت تضطر لإطعامه ، كانت
تقول « وأى ثواب فى إطعام كلب مسعور ؟ !

ولم يكن أحد يستطيع أن يقترب من شقة الحكيم أو يدخلها إلا وأصابه
الكلب ، مثلاً عندما حضر « صابر » أحد سائقى « الأهرام » الذى كان
يحضر لأخذ الحكيم إلى مكتبه ، فتحت له « منصوره » الباب وكان خائفاً
من نباح « الكلب » فراقته وطلبت منه الجلوس ، ونصحته بالألا يخاف أو
يظهر خوفه لأن الكلب إذا أحس بذلك سيتجرأ عليه ، ولكن « صابر » لم
ينج من « عضه الكلب » ، وليس ضيوف الحكيم فقط بل جيرانه أيضاً ،
فقد عض الكلب أحد جيران « الحكيم » وأخذ لذلك واحداً وعشرين
حقنة ، واشتكى أهله جارهم توفيق الحكيم ، فى قسم البوليس واضطر
الحكيم لدفع واحد وعشرين جنيهاً غرامة ، ووصل استفزاز « الكلب »
إلى درجة لم تنج معها منصوره من عضته رغم أنها هى التى تطعمه
« الفتنة » واللحم المسلوق ، ففى يوم أراد الخروج من باب « الحمام »
الذى كان يوضع فيه ، فجاءت « منصوره » لتحكم غلق الباب عليه
فأغلقت على رأسه ففتحت الباب لتسمح له بإخراجها إلى داخل الحمام ،
ولكن الأثم الذى أصاب رأسه جعله يندفع « ليعض » قدم « منصوره »
« عضه » نزت بسببها دماؤها دون أن تستطيع لها حبساً لغزارتها ، فلم
تشعر بنفسها إلا وهى تخير الحكيم بينها وبين الكلب « إما أنا وإما هو فى

هذا البيت » ، ولم يكن في المسألة خيار يختاره الحكيم ، لقد اتصل على الفور برجال البوليس فأتوا في نفس ليل اليوم نفسه لإطلاق النار على « الكلب » وتحليص بيت الحكيم من شروره التي لم تسلم منها اليد التي أطعمته ، ولكن الحكيم طلب من رجال الشرطة ألا يقتلوا « الكلب » في بيته فضلاً عما سوف يستتبعه ذلك من إزعاج لسكان العمارة التي يقطن بها ، لذلك طلب من رجال الشرطة أن يحضروا بالنهار ويأخذوا « الكلب » ليتصرفوا فيه بمعرفتهم ، ولكن أحداً منهم لم يستطع ترويضه للنزول معهم ، سوى « عبده » الذي كان صديقاً لإسماعيل في فرقته ويساعد في أمور البيت من باب حبه لصديقه ، حتى إذا مات إسماعيل وانحلت فرقته تعلم قيادة السيارات ، وعمل لدى هيئة اليونسكو في لبنان ، فنجح « عبده » الذي كان « الكلب » معتاداً عليه لوجوده كثيراً في البيت ، في أن يخدع « الكلب » ويوهمه باصطحابه في فسحة خارج « البيت » ، وقفز به في داخل سيارة الشرطة التي كانت تنتظر أسفل العمارة ، وأغلق رجال البوليس على الكلب بابيها الحديدين ومضوا به ، وبقيت « منصوره » ، ولكن حنقها على الكلب الشرس الذي سبب لها الأذى لم يجعلها تكره كل الكلاب فليست كلها شرسة ، ولذلك فإنها كثيراً ما تصطحب « محمداً » حفيد الحكيم خارج البيت لتشم الهواء ، ويلعب هو مع الكلاب التي يجب أن يلاعبها وتلاعبه ، ومنصورة مطمئنة إلى أن الكلاب لا تؤذي طفلاً ، ثم إنها تأخذ بالها منه كابنها أو كحفيدها إن كانت قد تزوجت وأنجبت ، ولكن ليس هذا هو ما يشغلها بعد أن مرت السنون وانقضى من العمر ما انقضى ، إنما الذي يشغلها هو « حج مبرور » ، ولذلك حينما سأها الحكيم ذات مرة عما إذا كان نفسها في شيء تريد تحقيقه ؟ ، فتقول له « نفسي أحج » ، فيقول لها : إن شاء الله ستحجبن ولكن بعد أن أموت أنا » ، وقد تحقق شرط النبوءة بموت الحكيم ، فهل

سيتحقق الشرط الثاني منها ؟ ولكن منصوره تشاءمت من هذه النبوءة التي لا تتحقق إلا بموت سيد البيت ، فسارعت تقول :

الشر بره وبعيد .. ربنا يطول عمرك .. ولا أريد أن أحج ؟
تقولها وهي مضطربة ، فالحج أمنية ترجو تحقيقها ، فيطمئنها الحكيم :
إن شاء الله ستحجين ؟ . وكأن الحكيم بنبوءته عن الأمانى التي لا تتحقق إلا برحيله ، يرى فى الأفق قرب النهاية ، فلأول مرة عندما بدأ رحلة مرضه ١٩٨٤ ، لم يكن معه سوى منصوره ، التي استنجدت بزوجة ثروت أباظة ، تليفونيا ، فقامت السيدة الفاضلة باستدعاء الأطباء له ، وكانت تطمئن على صحته طوال الوقت ، تليفونيا أيضا ، حتى جاء عبد الله عبد البارى (رئيس مجلس إدارة الأهرام آنذاك) ونقله إلى مستشفى « المقاولون » وقال له معاتبا : كيف تعتمد على مديرة بيتك وحدها وهي لا تستطيع أن تتصرف وتستدعى لك الأطباء ؟ .

ومنذ ذلك الوقت بدأ دخول « زينب » إلى حياة أبيها ، فعندما جاءت من الاسكندرية لزيارته بعد حصول أولادها على أجازتهم الصيفية ، وجدت أن ظروفه الصحية تستدعى تواجدها بجواره بصفة دائمة ، فكانت تشرف على إعطائه الأدوية المطلوبة فى مواعيدها المضبوطة ، وعندما عاد إلى البيت بعد شفائه من مرضه الأول ظلت ترعاه خلال فترة كان أحوج ما يكون فيها إليها ، فكانت منصوره تقول للحكيم :

ربنا أكرمك بالست سوزى إنسانة طيبة وبت حلال ، ولو ربنا يجبنى كان رزقى بنت مثلها ، فتقول لها زينب : ما معنى هذا الكلام .. أألسنت أنا ابنتك بالفعل ؟ .

فتجيبها منصوره ومعى مبتهجة : طبعا إبنتى وأكثر من إبنتى « ، وتمضى حياة الحكيم فى سنواته الأخيرة بين الصحة والمرض ، حتى نقل

ذات مرة إلى مستشفى القصر العيني ، فلم يمكث بها إلا حوالى أسبوعين ،
ثم عاد مرة أخرى إلى بيته يشكو لمنصورة نصيحة الأطباء له :
عليك أن تستريح من الكتابة لمدة شهرين .
ويقولها الحكيم معقبا : وأنت تعرفين يا منصوره أن الكتابة شىء يجرى
في دمي لا أستطيع أن أتوقف عنه .
فتواسيه قائلة : معلش .. الشهرين يفوتوا بسرعة وترجع تكتب
أحسن من الأول .

ولكن توفيق الحكيم لا يقتنع ، فألعن شىء يصيبه أن يتوقف عن
الكتابة ، وألعن من ذلك ألا يجد ما يكتبه ، ولذلك كان يقول في
المستشفى لمن حوله : إننى أريد أن يأتى أجلى قبل أن يتوقف عقلى عن
الفكر ، وتتوقف يدي عن الكتابة ، لا أتمنى أن أعيش يوما واحدا إذا
حدث لى هذا .

ولذلك كانت تقلقه نصيحة الأطباء أن يظل شهرين بلا كتابة ، ولكن
لم يكدير أسبوع حتى عاوده المرض من جديد ، فنقل إلى مستشفى مصر
الدولى ، ولكنه أراد الإنتقال إلى مستشفى « المقاولون العرب » حسب
رغبته ، وقبل أن يحدث ذلك بيوم واحد اتصل تليفونيا بمنصورة وقال لها :
أريد أن أعود إلى البيت وأكل من طعامك يا منصوره .. أنا « قرفت » من
أكل المستشفيات « فتقول مشجعة : شد حيلك واشف بسرعة وارجع لنا
بصحة جيدة .. وكل ما تطلبه من عيني » .

وتسعد « منصوره » ، لأن توفيق الحكيم يتذكرها ويتذكر طعامها حتى
فى مرضه ، ولديه كل الحق فى ذلك ، فكيف ينسى طعامها فى سنوات
صحته ، ثم فى سنوات مرضه الأخيرة ، كيف ينسى ، محشى ورق العنب ،
و « الكوسة » ، و « دقية البامية » ، و « المسقعة » ، وسمك « الوقار »
المقطع ترنشات ، ولحم « البفتيك » والحلو ، « كومبوت » وهو عبارة عن

« خوخ » أو تفاح » يغسل ويقشر ويقطع ويغطي بالماء المذاب فيه السكر ، و « البانيليا ، ثم يوضع على النار لينضج ، ثم يوضع في التلاجة ليتناوله بالمعلقة بعد الغداء ، وبعد العشاء ، ولم يكن الحكيم يتناول هذه الأطعمة مرة واحدة ، على مائدة واحدة ، فكثرت أمامه « تسد نفسه » كما يقول لمنصوره ، بل يجب أن تتوزع على الوجبات ، ويتناول منها بالقدر الذى يطبق فيه الحكمة النبوية « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع » . فهذا هو منهج الاعتدال الذى كان يسير عليه الحكيم ، في طعامه ، فيتناول مثلاً قطعة لحم واحدة ، حيث كان يفضل اللحم على الدجاج ، أو يأكل قطعة من السمك ، ويتناول طبقاً من الشوربة ، ونصف رغيف ، وأحياناً ربع رغيف .

وقد ورث الحكيم الاعتدال في الطعام عن والده ، كذلك النظام في مواعيد الطعام ، وكلاهما الاعتدال ، والنظام ، يضمنان صحة لا يعتورها المرض إلا مالا راد له كأمراض الشيخوخة ، فقد كان الحكيم حتى سنواته الأخيرة يصحو قبل السادسة ويصلى صلاة الصبح ، ويقرأ القرآن ، ويفتح الراديو على قرآن السادسة ، ثم يشرب الشاي الحلو الخفيف مع قطعة أو اثنتين من الكيك ، ثم صار يعتمد على « اللبن » في « فطوره » ، أما الغداء فكان يتناوله في الساعة الثانية والنصف بعد عودته من الأهرام ، فيخلع ملابسه ، ويغسل وجهه ، ويرتدى ملابس البيت ويجتمع مع أسرته حول مائدة واحدة ، ويأتى طعام العشاء في الساعة العاشرة مساءً ، يتناول فيه « الشوربة » ، ثم قطعة « جاتوه » ثم « كومبوت » ، وكان يتناول « الزبادى » بالسكر لمدة سنتين أو ثلاثة ، وفي سنوات مرضه الأخيرة لم تعدله مواعيد في طعامه ، فكانت منصوره تأتيه بالطعام في حجرة مكتبه ، فيطلب منها تغطيته حتى تفتتح شهيته ، وفي بعض الأحيان كان يأكل عند حضور الطعام ، ولما دخل الحكيم المستشفى وأبدى شهيته لطعام منصوره ،

كانت تمنى عودته ليأكل من طعام يدها بعد أن مل طعام المستشفيات ، ولكن بعدها بيوم واحد كان الحكيم قد نقل إلى مستشفى آخر حسب رغبته ، ولكن « منصوره » كانت تعد له ألواناً من الطعام الذى يحبه ، كالمسك ، والبامية ، ليتناوله فى المستشفى ، وكانت ابنته زينب تتولى مسألة المشروبات الغازية ، وكانت منصوره دائمة السؤال على الحكيم فتحكى لها زينب عن آخر تطورات مرضه ، هل أكل ، هل تكلم ، هل صحته كما هى أم تحسنت ؟ [وفى الليلة الأخيرة] اتصلت زينب بمنصوره لتخبرها بأسوأ خبر : البقية فى حياتك ، فلم تشعر بعدها أنها فى هذه الدنيا ، بكت حتى لم تعد ترى ما حولها ، لم تكن تتوقع أن تكون نهايته بهذه السرعة ، ففى كل مرة يدخل المستشفى كان يعود بعدها إلى بيته ، على هذا الأمل عاشت منصوره ، حتى جاء الخبر الحزين ، الخبر الذى لم يساوه سوى خبر وفاة أمها التى ماتت قبل أن تراها ، وفكرت وقتها فى العودة إلى بلدها الاسكندرية بعد أن لم يعد فى البيت أم ، ومن قبلها مات الأب الذى لم تشعر بالحزن عليه كثيراً لأن سنها كانت لاتزال صغيرة ، ستة عشر عاماً ، كما فقدت أختها وأختاً خلال ثمانية وعشرين يوماً ، صحيح أنها حزنت عليهما كثيراً جداً ولكن ليس كحزنها على الحكيم الذى كلما جاءت سيرته أمامها لا تتمالك نفسها من البكاء ، فقد فضلته على أهلها ، ولم تشأ أن تتركه بعد وفاة أمها ، لقد اختارت بيت الحكيم على بيت أسرتها ، حتى بعد وفاة الحكيم ، إنها تحاول أن تبعد نظرها عن حجرته فهى لم تعد تتمالك نفسها من الدموع كلما شعرت أن الحكيم لم يعد موجوداً بها ، إنها لا تستطيع أن تنساه وكأن صوته لا يزال يناديها ، فرغم رحيله فإن صدى صوته لا يزال تشعر أنه يرن فى أذنيها ، إلى درجة أنها فى بعض الأحيان تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، وعندما يأتي الليل تذكر حسناته ، إطعام العسافير ، مساعدة المحتاجين من شغالين

وشغالات العمارة ، انتظاره بالباب ليستقبلها عند عودتها من عند
 الطبيب حينما كانت مريضة ، انحنائه لحمل الأشياء التي لم تكن تستطيع
 الانحناء لحملها بسبب الحزام الطبي الملفوف على ظهرها ، شريط من
 الذكريات يمر أمام ناظرى « منصوره » فتغلبها دموعها على الرجل الذى
 لا يعوض ، إنها لا تستطيع أن تسيطر على انفعالاتها وتصمت عن حزنها ،
 كما كان يفعل الحكيم حينما يموت عزيز لديه ، أخوه ، زوجته ، ابنه ، أمه ،
 كان من فى البيت يغلقون الراديو والتلفزيون حزنا ، ولكنه كان يقول
 لهم : هذا خطأ ، اسمعوا الراديو وشاهدوا التلفزيون ، [يريد منهم أن لا
 يتوقفوا أمام الحزن الذى لم يعد يرجى منه عودة لراحل قد غاب ولن
 يعود] ، ولكن رغم كل ذلك فإن مشاعر الحزن تبدو على الحكيم يحسها من
 يعيشون معه ، إنه يجلس مع نفسه مغلقا حجرتة عليه سارحا فى تأملاته
 وأحزانه ، فتحاول « منصوره » أن تخرجه من هذا الجو الكئيب الذى
 يعيش فيه رغم أنه إما أن يكون فاتحا الراديو ، أو التلفزيون ، ولكن يبدو
 لمن يشعر به ، كأنه فى عالم آخر لا يشعر بما حوله ، فتقترب منه منصوره
 لتسده من سرحانه إلى عالم الواقع فتسأله مثلا : تشرب قهوة ولا شاي ،
 أم أحضر لك الطعام ، تحب تأكل إيه ؟ فلا يلتفت إليها وكأنها غير
 موجودة ، فتقترب منه أكثر وتحاول أن تنبهه : حضرتك ألا تأخذ بالك من
 كلامى ؟ ، فيقول لها : هو انت قلت حاجة ، فتقول له : « أنا أقول
 لحضرتك تحب أعملك إيه ؟ ، ولما كان يجب « الكيك » فيقول لها :
 اعملى ، ولو كان سيزوره أحد يقول لها : اعملى « كيك » لتناوله مع
 الشاي ، ويبدأ الحكيم فى الخروج من أحزانه شيئا فشيئا ، أما المنصورة
 فارتباطها بالحياة مع الحكيم زهرة عمرها يجعل حزنها يملأ عليها كيائها فلا
 تستطيع له دفعا فتفتح الراديو فى حجرتها على إذاعة القرآن الكريم ،
 وتدعو « الله يرحمك رحمة واسعة ويجعل من فوقك رضا ومن تحتك رضا فى

الجنة» ، لقد كانت منصوره تدعو له وهو بالمستشفى ، وهى تصلى الفجر
« يارب اشفيه يارب ، يارب أرجعه إلى بيته بالسلامة » ، أما بعد وفاة
الحكيم فهى تقرأ له الفاتحة ، وتقرأ له إحدى عشرة مرة ، سورة
« الإخلاص » ، ترهما على روحه ، كأنها تناجيه وتقول له : إنها هدية منى
يا حسين. يا توفيق يا ابن أم قاسم^(١) .

(١) كانت أم الحكيم ينادونها بأُم قاسم تيمناً وتبركاً باسم القاسم ابن الرسول صلى الله عليه وسلم .

obeikandi.com

فلاح عودة الوعى

(١٤) (٢٥) الكاتب لم يأت لتفويت شعورنا إنما لتبنيته العملية، ولكنه يتولى العمل... ولذلك إذا
رغم أنك أنت لم تكن إيجابية في يد القوة فهو أدنى يتولى العمل بقادراته وفوقها
يبدأ منه بلشت القوة... وإذا رفض أنه يكون أداة دعابة في يد السلطة فهو يتولى
طاقة جيبه ويربها لخصاله...

(١٤) المتكروم ليست لهم دور في توجيه العالم مثل سياسيينه لأنه سياسة ضابطة
قوة الأذهار والزعيم... والمتكروم ليست علم عين الفكر بل هو الرأى الأعزل...
فإذا استطاع الفكر والرأى الملموم شتمه بقوة فإنه هذا الاستماع يصبح بدوره
قوة فعالة يكتمه أنه توجه العالم...

(١٤)

- أنت أمى وأنت أذى ولكن القانون سيطبق عليكما .
- يابنى أنت انهزامى واستسلامى وعديم الوطنية !
- أعقل اثنين
- من سرب المخطوطة ؟
- زوجتى غاضبة من أجل الزعيم

(*) من إجابات توفيق الحكيم بخط يده على عدد من الأسئلة التي طرحها عليه المؤلف
في ٢٧ / ١ / ١٩٨٥ .

وإذا كانت هذه هي علاقة الحكيم الحميمة مع خادمة بيته ، فإن علاقته
بعبد الجيد خادم أرضه لا تقل شأنًا لأنها تمثل علاقة توفيق الحكيم بالقرية
والفلاحين ، وهي علاقة حميمة عبر عنها منذ البداية في صرخته الثائرة
للمطالبة بتحسين أحوالهما في « يوميات نائب في الأرياف » ، بل حتى
عندما استقر بالمدينة اصطحب معه من القرية « سماراً » مؤنساً لفكره
وجعله بطلاً لأكثر من عمل من أعماله ، وعندما وجد فرصة للمشاركة في
تحقيق مكاسب للفلاحين لم يتردد للحظة واحدة ، ولذلك عندما جاءه
صديقه الفقيه القانوني عبد الرزاق السنهوري ، المكلف من رجال الثورة
بتحديد الملكية الزراعية بخمسمائة فدان ، أو مائتي فدان ، وطلب المشورة
من الحكيم ، اختار الحد الأدنى المقترح بمائتي فدان لكي تذهب كل زيادة
عن ذلك إلى الفلاحين المعدمين ، وعندما صر التعديل بعد ذلك بسنوات
بتحديد الملكية بمائة فدان ، أصبح هذا القانون ينطبق على أم توفيق
الحكيم التي تمتلك مائة وخمسة وخمسين فداناً ، كانت قد دبرت شراءها ،
وعاونها في ذلك ابنتها المهندس الزراعي « زهير » ، ولم ينبه توفيق الحكيم
أمه ، وأخاه بالتعديل الجديد قبل صدوره وكانت لديه معلومات عنه ،
وعندما صدر قانون الإصلاح الزراعي الجديد بتحديد الملكية بمائة فدان ،
حاولت أم توفيق وابنتها زهير التحايل على القانون بكتابة الأرض الزائدة
عن حد القانون - بأسماء بعض الأقارب .

ولكن الحكيم تصدى لمحاولة أمه وأخيه وقال لهما : لا بد أن يطبق
القانون عليكم مثل بقية الناس ، فقال له أخوه : ولكن هذه الأرض
اشتريتها أنا وأمك وكانت أرضاً « بوراً » وأنا تعبت في استصلاحها فكيف
يقتطعها القانون منا ؟. فلا تجد هذه الحجة أو ذلك المبرر سبيلاً لتراجع

الحكيم عن موقفه حيال تطبيق القانون ولو كان على أهله ، ويقول لأخيه وأمه « القانون هو القانون فلماذا لا يطبق عليكم ؟ لا يشرفنى أبداً أن تتهربوا بالأرض من تطبيق القانون .

وبسبب هذا الموقف توترت العلاقة بين الحكيم وأمه وأخيه ، بل وبينه وبين بعض أقاربه الذين رأوا في تصرفه شذوذاً وعقوقاً ، ولكن الحكيم لم يكن يجامل أحداً حتى لو كان والدته وأخاه أقرب الناس إليه ، ولما كانت الأرض التي تمتلكها والدته مؤجرة للفلاحين يزرعونها ، وكان عليهم كل سنة أن يدفعوا إليها بالإيجار ، فإن بعضهم كان يتأخر في السداد لظروف خارجة عن إرادتهم ، فتبعث إليهم أم الحكيم تستعجلهم ، فكان ابنها توفيق يستمهلها ويقول لها : خللي بالك طويل على الفلاح ، لأنه غلبان .. مسكين .. مسالم .. مثابر .. يحب الأرض ، ولا يوجد أحد عنده وفاء مثله « . وعلى قلة ما كان الحكيم يزور قريته « أبو مسعود » بدمهور نظراً لمشاغله خاصة بعد أن صار مشهوراً ثم أصبح رب أسرة ، فإنه في تلك المرات التي كان يزور فيها قريته كان يختلط بالفلاحين يسمع منهم وهو يجلس معهم في « الجرن » على « القش » وقد أقام له الفلاحون « شمسية » ببعض العصى المغروزة في « القش » وفوقها قطعة قماش قديمة ، تحبس الشمس عن الحكيم وجلسائه من الفلاحين الذين يظل معهم من الساعة العاشرة صباحاً وحتى الثانية بعد الظهر يستمع منهم إلى همومهم ومشاكلهم - خاصة قبل الثورة - عندما كان الفلاح نهياً لاستغلال رجال الإقطاع ، والرأسماليين الذين كان يحتاج إليهم الفلاح فيعاملونه « بالربا » ، فيخرج الفلاح في نهاية الأمر صفر اليدين . يستمع الحكيم إلى كل ذلك وغيره فضلاً عن مشاهداته من خلال عمله كوكيل للنيابة في الريف ، فيعبر عنها في كتاباته ضمن ما يعبر عن الأحوال الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في مصر التي يرى في نهاية

الأمر أنه لا حل لها إلا بثورة مباركة ، بشر بها ودعا إليها وأيدها حينها جاءت وأيد قوانينها التي أنصفت ضمن ما أنصفت « الفلاح » .

وبعد أن ينتهى الحكيم من جلوسه مع الفلاحين فى قرينته ، يذهب للغداء ، ثم فى ساعة العصارى يمارس هواية المشى بين المزارع ، وتتنامى إلى مسامعه غناوى الفلاحين ، ويسأل عن أنواع المزروعات ، وكيف تزرع ؟ ، فيجيبه الفلاحون وقد تجمعوا حوله من جديد يسرون معه بين الحقول .

* * *

وحينما لم يعد الحكيم قادراً على الذهاب إلى قرينته كان همزة الوصل بينه وبينها ، هو « عبد الجيد محمد عبد الرازق » الذى عرفه الحكيم ، وعمره ثمانية عشرة سنة عندما عمل فى أرض أم توفيق يرعى شئونها حتى صار هو « ناظر » الأرض وواسطة العقد مع الفلاحين الأجراء إلى أن توفيت أم الحكيم ، وتم تقسيم الأرض بين الورثة ، وصار توفيق يمتلك (٤٥ فداناً) سجلها باسم ابنته زينب قبل وفاته ، مثلما سجل عقد ايجار الشقة باسمها أيضاً حتى لا يتنازعا أحد ، وأصبح ايجار الأرض يذهب لزينب .

ورغم أن الحكيم لديه عقدة من الحساب منذ كان تلميذاً ، إلا أن « عبد الجيد » لا بد أن يشرح له المصروفات والتزامات الأرض بالمستندات ، وي طرح له المنصرف من الإيراد ، والباقى يأخذه الحكيم ويعطى به « عبد الجيد » إيصالاً باستلامه ، ولم يحدث بسبب الفلوس أى خلاف بين الحكيم وعبد الجيد ناظر أرضه التى تسمى عزبة « البيه » ، وهو اللقب الذى يجب المتعاملون مع الحكيم أن ينادوه به ، وإذا حدث وأخطأ عبد الجيد فى حسابات الأرض وأعطاه جنيهاً زائداً فلا يمكن لما

يدخل في جيب الحكيم أن يخرج منه أبداً ، أما لو حدث العكس وقال له عبد الجيد « أنا أخطأت في الحساب ولك عندى خمسة قروش » ، يقول له الحكيم « هاتها » .

ولا يتصنع الحكيم في معاملة عبد الجيد ولا يتكلف معه ، شأن الحكيم في ذلك مع أى إنسان كبير أو صغر ، صديقاً له أو يعمل عنده ، ورغم أن « عبد الجيد » لم يحصل إلا على شهادة محو الأمية إلا أن الحكيم لم يشعره يوماً في معاملته له بأنه أقل قيمة ، لأن كل إنسان في نظر الحكيم مادام ناجحاً في عمله فهو عالم من العلماء ، لأن الدنيا كما يرى تسير بنظام والادارى ، والقاضى ، والمفكر .. الخ ، كل له وظيفته ودوره في الحياة ، ويقدر نجاح الإنسان في المكان الذى هو فيه ، يقدر ما تكون قيمته ، ولذلك كان الحكيم لا يتعالى على أحد ، فكان مثلاً يهتم بعبد الجيد حينما يأتي إليه في القاهرة ، ويعتبره كأنه واحداً من أسرة الحكيم أو أكثر ، بل إن الحكيم كان يدعو « عبد الجيد » للجلوس معه في حجرة مكتبه ليشرب معه الشاي ، ويشاهد التليفزيون ، وعندما يأتي مسلسل فيه « فلاحون » ، كان الحكيم يعلق على عدم اتقان الممثلين لدور الفلاح ويقول : انظر يا عبد الجيد إنهم لا يستطيعون أن يمثلوا دور الفلاح ، معقول الفلاح بهذه السذاجة ؟ ويدور حوار بين الحكيم وعبد الجيد ، عن الفلاح والأرض وهموم الزراعة ، والمحصول الذى لم يأت بنتيجة ، فيسأل الحكيم عن السبب ، فيقول له مثلاً إن محصول القطن ناقص لأن الدودة أكلته ، ولكن أين المبيدات ؟ يسأل الحكيم ، ويحبه عبد الجيد : المبيدات كان فيها عجز هذه السنة ، فيقول الحكيم ؛ كان المفروض وزارة الزراعة توفر المبيدات .

ويستمر الحوار بسيطاً بين عبد الحكيم وعبد الجيد ، النصح كان يسأل

والحكيم يجيبه ويتسع صدره له ، ويحدثه بلغته ومستواه وفكره ، ويعطيه الفرصة ليتكلم ويسأل ، ويصحح له معلوماته في موضوعات دينية أو سياسية أو أى شئ يختص بأحوال البلد ، ويطلعه كيف تسير الأمور ، ويشرح عبد الجيد وجهة نظره ، وينصت إليه الحكيم ثم يعلق على كلامه ، ودائماً كان عبد الجيد يقتنع ويعود من كل زيارة للحكيم بمعلومات جديدة أضافها أو صححها له ، أو يكون عبد الجيد قد استشار الحكيم في مشكلة عامة أو خاصة ، أو متعلقة بأعمال الأرض والزراعة والفلاحين والمستأجرين ، وهل كان تصرفه في هذه المشكلة على صواب أم على خطأ ، فيفيده الحكيم أنه في هذا التصرف كان محقاً ، ولكن في هذه المشكلة كان يجب أن يفعل شيئاً آخر ، ويمتد الحوار بين عبد الجيد والحكيم الذى يشجعه على إطالة الحوار بأن يحكى له بعض ذكرياته .

وهكذا يشعر عبد الجيد بالألفة وهو مع الحكيم الذى يتركه يجلس معه دون أن يشعره بأى كلفة أو تكاليف ، وإنما يشعره بأنه مثل صديق له يرتاح له ويأمن به ، وقد استطاع عبد الجيد أن يتفهم طباع الحكيم إلى درجة أنه يعرف متى يستطيع أن يستطرد معه فى الكلام ومتى يتوقف عندما يراه وقد دخل فى حالة يسرح فيها مع فكرة تشغله ، فيتركه مع تأملاته دون أن يقطع عليه حبل أفكاره ، إلى أن يحدثه الحكيم فيعود الحوار الذى يمتد ساعات وساعات .

ولا ينام الحكيم قبل أن يطمئن من أهل بيته على راحة عبد الجيد ، طعامه، شرابه، نومه، فكان عبد الجيد يشعر بهذا الاهتمام من الحكيم، فكانت تستريح نفسيته ، ويحس كأنه فى بيته لم يفارقه ، وعندما يكون مسافراً عائداً إلى القرية ، يسأله الحكيم عن وسيلة السفر ، ويحذره من ركوب التاكسيات فسائقوها متهورون لا يراعون أصول القيادة ، وينصحه لذلك بركوب القطار ، ثم يطلب منه ألا يغيب كثيراً عن زيارته ،

بل ويطمئن منه على الموعد الذى سوف يأتى فيه ، حتى جاء عبد الجيد ذات مرة على غير موعد ودون انتظار من الحكيم أن يأتى فى هذا اليوم بالذات لأنه لم يمرض على زيارته سوى يومين فقط ، فسأله الحكيم عن سبب وجوده فى القاهرة فقال له إنه قد حضر مع آخرين من القرية بطلب من لجان الاتحاد الاشتراكى الذى حشدهم مع من حشدهم من الناس لاستقبال عبدالناصر بعد عودته من زيارة له فى الخارج، ودار حوار بين الحكيم وعبد الجيد حول هذا الموضوع ، الذى ضمنه بعد ذلك ما اعتبره تقييما لثورة يوليو فى كتابه المعروف بعودة الوعى ، والذى خطه بالقلم الرصاص بعد وفاة عبد الناصر ، ولم ينشره إلا بعد رحيله بأربع سنوات ، ولو كان قد نشره فى عهده إبان هزيمة ٦٧ ، لكان الموقف قد اختلف ، لولا أن عملا كهذا كان من شأنه أن يضع ملحا فوق الجرح ، فضلا عن أن الحكيم لم يكن مصدقا أن قواتنا المسلحة يمكن أن تلحق بها هزيمة لأن كل الدلائل كانت تشير إلى حجم الثقة الزائدة فى الجيش وحسن قيادته ، وظل الحكيم على قناعته بحتمية النصر حتى أعلن عبد الناصر بيان التنحي ، لقد كان الحكيم من أواخر من اكتشفوا الحقيقة المريرة ، حتى أن ابنه إسماعيل كان أسبق منه إلى إدراك ما خلف ضباب الأحداث ، ففى تلك الليالى السود بأحزانها وآلامها وأنوارها المظلمة تضليلا لأى غارة عن أهدافها ، كان إسماعيل يجلس على البيانو فى مدخل البيت عن شمال الداخل إليه ، ليعزف لحنا جنائزيا ، فيصرخ فيه والده توفيق الحكيم لكى يتوقف ، ولكن إسماعيل يقول لأبيه صارخا بمرارة تخنقها الدموع وحشرجات صوت تقطعت أنفاسه : لقد هزمنا . ويواصل عزفه للحن الجنائزى الحزين ، فيتهمه الحكيم بأنه : انهزامى واستسلامى وعديم الوطنية !

ويصمت إسماعيل ومعه أهل البيت جميعا ، فقد اعتقل بأن المفكر

الكبير لديه فكرة عما يدور على جبهة القتال ، ويحوز معلومات مطمئنة عن وصول قواتنا إلى مرحلة متقدمة في المعركة ، ولكن أحدا لم يحاول أن يسأل عن أى شئ ظنا منهم أن هذه أسرار لا يجوز السؤال عنها أو البوح بها ، ولكنهم لم يكونوا يعرفون أنه لا يعرف شيئا عن أى شئ ، سوى قناعته وثقته في انتصار قواتنا المسلحة رغم ورود معلومات عن انسحابها من سيناء ، كما أخبره بذلك أحد أصدقائه ، ولكنه ظل على تفائله مستعينا بذاكرة التاريخ ، ظنا منه أن هذا الانسحاب يشبه انسحاب الروس من « ستالينجراد » ، لينقضا بعد ذلك على قوات العدو ، ولكن الحقيقة كانت أسوأ من إمكانية تصديقها ، حتى بدأ ستار ظلمة الليالي والأيام السود ينزاح عن كارثة في حجم الأمانى التي كانت معلقة على ثورة يوليو وزعيمها الثائر ، وراح الحكيم يدون ملاحظاته وآرائه في تقييم التجربة كلها وأسمائها « عودة الوعى » ، مطالبا بفتح ملفاتها ، ووجدها البعض فرصة لإدانة زعيم الثورة ، واكتشف الحكيم أن فتح الملفات أدى إلى ادانات جديدة لعبد الناصر ، فكتب مرة أخرى ، يطالب بإغلاق الملفات ، ولكن لم يكن هناك جدوى ، فقد استغل بعض بقايا عهد ما قبل الثورة ، عودة الوعى ، ووجدوا فيها ضالته المنشودة ، حتى أن بعضهم أبلغ رسالة إلى توفيق الحكيم عن طريق ابنه اسماعيل ، يسخرون فيها شامتين ، قائلين للإبن أن يبلغ أباه :

هل عرفت الآن فقط أن الثورة التي بشرت بها كانت فاشلة؟!
وحزن الحكيم لذلك كثيرا فلم يكن يقصد أن تستغل عودة الوعى بهذه الانتهازية .

ولكن بعض اليساريين المتعقلين تفهموا دوافع الحكيم وهى أنه ينتقد لحساب المستقبل لا لحساب الماضى . وسأل التلميذ عنم هؤلاء المتعلقون ؟

فقال الحكيم « من أعقل اليساريين الذين تفهموا موقفى ، خالد محبى الدين ، ولطفى الخولى ، الذين قالوا لى :
إننا لسنا ضد كتابك فكلامك فيه معقول ، وقال خالد محبى الدين :
إنه وقف ضد عبد الناصر عندما رأى أنه ضد الديمقراطية ، وأنه يتفق معى
فى ضرورة دراسة تجربة عبد الناصر ليس بهدف تخرجه ولكن بهدف
الاستفادة من تلك التجربة لعدم تكرار أخطائها ، وقال خالد محبى الدين
ولطفى الخولى أنها فقط ضد التوقيت الذى نشر فيه « عودة الوعى » لأن
اليمنيين استفادوا منه لهدم الثورة . فقلت : إنه لا يهمنى اليمين ولا أنظر
لهذا وإنما الذى يهمنى أن نعرف الأسباب التى أدت إلى انحراف الثورة
وأدت إلى الهزيمة حتى لا نقع بعد ذلك فىنا وقعنا فيه .

ولكن فى الحقيقة أنا لم أكن متنبها لحكاية التوقيت الذى ظهرت فيه
« عودة الوعى » لأننى كتبتها بمناسبة مرور عشرين سنة على الثورة ،
حيث خطرت لى وأنا جالس فى « قهوة » مع نجيب محفوظ وإبراهيم
فرج ، قبل أسبوعين من يوم ٢٣ يوليو ١٩٧٢ ، حينما راح شريط الثورة
ير أمام عيني منذ صباح الأربعاء حينما سمعت بيان الثورة الأول واستيلاء
الجيش على السلطة ، فلم التفت لهذا البيان الذى سمعته فى الراديو ، لم
أعيه تماما وارتديت ملابسى فى ذلك الصباح وخرجت لتناول الافطار فى
« جروبي » ، نظرا لوجود الأسرة للاصطياف فى الاسكندرية وكنت
أزورهم كل يوم خميس وجمعة ، نظرا لمشاغلى ، فكنت فى غيابهم أتناول
طعامى خارج البيت ، فرأيت وأنا ذاهب إلى « جروبي » فى ميدان
سليمان باشا (طلعت حرب الآن) ، دبابات ، فسألت نفسى دون أن
أعرف : ماذا تفعل دبابات الانجليز هنا ؟ فلم يكن مألوقا وجودها فى
الشوارع ، ولما سألت عن حقيقة الأمر بعض الموجودين فى « جروبي »
أخبرونى بأنها دبابات الجيش المصرى الذى استولى على السلطة ، وما بين

البداية حتى هزيمة ١٩٦٧ رحلت أتأمل كيف أنه في تلك الأيام الصعبة لم أجد نائباً عاقلاً في مجلس الأمة يرفع إصبعه ويطلب الكلمة ليوجه سؤالاً إلى عبد الناصر عما حدث ، كيف حدث ولماذا حدث ؟ فيجيب عبد الناصر موضحاً الحقيقة كل الحقيقة ، وعند ذلك يقدر الشعب الموقف ويتفهمه ويواصل الحرب ولو بالعصى ، ولكنني فوجئت بمن يرقص في مجلس الأمة ، فكان الشعب قد فقد وعيه ، ورحلت أستعرض شريط ذكريات الثورة منذ قيامها وحتى الهزيمة في محاولة لاستكشاف واستطلاع ما أدى بنا إلى ما وصلنا إليه ، ولم أبرئ نفسي فقد قدرني عبد الناصر أكثر مما قدر غيري وربط بين فكرى وفكر الثورة ومن هنا تضاعفت مسئوليتي في ضرورة مناقشة كل ما وقع لأنني لا أعطى كائناً من كان تعهداً أبدياً بمساندته الأبدية لأن مصر كانت وستظل دائماً قبلتي الوطنية ، وبعد أن كتبت « عودة الوعي » بالقلم الرصاص : أخبرت صديقي نجيب محفوظ وإبراهيم فرج بما كتبت ، فأقراني على ما كتبت وأنتى ما قلت إلا الحقيقة ، وسألاني عن موعد نشر الكتاب ، فكان من رأى ألا ينشر الآن وأن يؤجل نشره إلى بعد أن أودع الحياة ، فطلب منى إبراهيم فرج وهو صاحب مكتب محاماة أن يطبع من المخطوط خمسة نسخ ، واحدة له وأخرى لنجيب محفوظ ، وأن أحتفظ أنا بثلاثة نسخ ، وكانت طريقة الطبع كما اقترحها إبراهيم فرج هو كتابتها على الآلة الكاتبة التي عنده بمكتب المحاماة ، فقلت له : ومن يضمن ألا تتسرب نسخة ممن سيكتبها على الآلة الكاتبة ، فطمأننى إبراهيم فرج إلى أن موظفة الآلة الكاتبة عنده لا تفهم شيئاً ، ولن تنتبه إلى أى شئ مما تكتبه ، وبالفعل أخذ كل من إبراهيم فرج ونجيب محفوظ نسخة من « عودة الوعي » بعد كتابتها على الآلة الكاتبة ، وأخذت الثلاث نسخ الباقية ، وأعطيت أحدها لصديقي الدكتور حسين فوزى واستبقيت لنفسى

نسختان ، ثم بعد ذلك فوجئت بتسرب « عودة الوعي » ونشرها مترجمة إلى الفرنسية ، ثم نشرها مرة أخرى مترجمة عن الفرنسية إلى العربية في صحف بيروت .

فمن الذى سرب « عودة الوعي » على غير رغبة الحكيم ؟! حاول الفتى الصحفى أن يجرى تحقيقا صحفيا للإجابة على هذا السؤال . ودارت وقائع التحقيق حول هؤلاء الثلاثة الذين أعطى كل منهم ، توفيق الحكيم ، نسخة من « عودة الوعي » ، هل هو نجيب محفوظ ، أم إبراهيم فرج ، أم د . حسين فوزى ؟ نجيب محفوظ صديق يؤكد الحكيم أنه يثق فيه ، فهو من طبيعته الكتمان ، وهو رغم اتفاهه مع الحكيم ، فى آرائه السياسية غالبا ، وبينها حوار مستمر ، أغلبه يدور فى مكتب الحكيم بالأهرام إلا أن نجيب محفوظ لا يبوح بشئ ، ، وكثيرا ما يردد أنه تلميذ ملازم لأستاذه يستمع منه أكثر مما يتكلم إليه .

أما إبراهيم باشا فرج ، المحامى والوفدى القديم ، وسكرتير حزب الوفد الجديد ، فيؤكد الحكيم أيضا أنه رجل شريف ، فاتجه إليه الفتى الصحفى ، يسأله عن علاقته بتوفيق الحكيم ، فأجابه ، أن علاقتها بدأت منذ ١٩٢١ كملاء دراسة بمدرسة الحقوق ، وتخرجا معا فى دفعة واحدة سنة ١٩٢٥ ، ثم افترقا مؤقتا فى طريق الحياة ، إبراهيم فرج التحق كمحامى تحت التمرين بمكتب مصطفى النحاس ، بينما سافر الحكيم إلى فرنسا لاستكمال دراسته والحصول على الدكتوراه فى القانون ليتسنى له الالتحاق بالنيابة العمومية المختلطة آنذاك ، ولكنه سافر وعاد بدكتوراه الأدب والفن والمسرح مما ثقف به نفسه فى باريس ، وعاد ١٩٣٠ ليلتحق بالنيابة الأهلية مساعدا لنيابة مركز طنطا فى الوقت الذى كان فيه إبراهيم فرج قد أصبح وكيلا لنيابة مركز طنطا ، فاجتمعا فى نيابة واحدة واتخذوا لنفسيهما

مسكننا واحدا بأحد البنسبونات بميدان الساعة بطنطا ، حتى نقل إبراهيم فرج إلى المنيا ، فباعدت بينها الأيام مرة أخرى ، ليتخذ إبراهيم فرج طريقه في السياسة ، ويسلك الحكيم طريقه في الأدب ، وكان يلتقيان من وقت لآخر ويدور بينهما حوار ممتد حتى أصبح إبراهيم فرج عضوا بارزا في حزب الوفد ، وتوفيق الحكيم عضوا بارزا في زمرة الأدباء والمفكرين ، له آراؤه السياسية التي كثيراً ما تختلف بطبيعة الحال مع إبراهيم فرج عضو حزب الوفد الذي لم تتمتع صداقة الحكيم له من أن يتاوى ويهاجم الحزب والحكومة التي ينتسب إليها صديقه ، وبعد الثورة وحل حزب الوفد بقى إبراهيم فرج محاميا وظل الحكيم مع قربه ومكانته التي وضعته فيها ثورة يوليو ، محافظاً على علاقاته مع أصدقائه القدامى ومنهم إبراهيم فرج الذي جعله الحكيم محاميه الخاص . الذي يسوى نزاعات أسرته ويحصل له على حقوقه من الناشرين ، وكان الحكيم يثق فيه أيضاً ويسميه « الصديق الوفي » ويصر على مناداته بإبراهيم باشا فرج وكتابة ذلك في إهداءاته لكتبه له ، حتى بعد إلغاء الألقاب كان الحكيم يصر على الاحتفاظ لصديقه بلقبه ، وكان إبراهيم فرج يزور الحكيم كل يوم جمعة في بيته القريب منه في جاردن سيتي ، وكانت زوجة إبراهيم فرج تزور زوجة الحكيم من وقت لآخر . فكانت صداقة قوية بين رجلين إلى درجة أن الحكيم قد طلب من إبراهيم فرج أن يختار عنواناً لمخطوطته التي لم يكن قد استقر على اختيار اسم لها من بين عدة أسماء اقترحها الحكيم ومنها : للحقيقة والتاريخ ، تصحيح لا بد منه ، تصحيح لما مضى ، كيف كنا نفهم الثورة ، وكان آخر عنوان اقترحه الحكيم على إبراهيم فرج هو « الوعى المفقود » ، فبادره إبراهيم باشا فرج قائلاً : بل قل « عودة الوعى » أفضل . فارتاح الحكيم لهذا الاسم الذي جعله عنواناً لمخطوطته ، وكان ذلك في قهوة « بيترو » بالاسكندرية . بل إن إبراهيم فرج بعد أن قرأ مخطوطة « عودة

الوعى « أمد الحكيم ببعض المعلومات التي أضافها على المخطوطة الأصلية ومنها تلك الفقرة الخاصة بحركة التطهير لبعض الرجال الذين أعادتهم الثورة وزراء بعد ذلك ، وذكر إبراهيم فرج للحكيم أسماؤهم ، وكتب الحكيم هذه الفقرة .

« ومضت عمليات التطهير دون مبالاة وبغير حساب حتى شملت بعض كبار الموظفين ، الذين اختيروا بعدها بقليل ، وزراء في ذات الحكومة التي سبق أن أحالتهم للتطهير ، وعلى سبيل المثال المهندس عبد الملك سعد وزير المواصلات السابق ، والدكتور عبد الرازق صدقى وزير الزراعة الأسبق » .

لم يبق سوى د . حسين فوزى الذى أشار الحكيم صراحة إلى أنه هو الذى نشر « عودة الوعى » من وراء ظهره ، فهو أحد الثلاثة الذين قرأوها مخطوطة قبل نشرها ، والدكتور حسين فوزى صديق قديم للحكيم تحدث عنه في سيرته الذاتية « سجن العمر » حيث تعرف عليه في « التياترو » في العشرينات ، وكانت لها إهتماماتها الفنية والمسرحية ، وتوطدت علاقاتها وامتدت حتى وفاة الحكيم . وقد ذكر الحكيم أن حسين فوزى لم يلتزم برغبته في عدم نشر عودة الوعى ، وحمله المسؤولية حين قال : « منه لله صديقى حسين فوزى أخذها ونشرها ثم ذهب يستمع إلى الموسيقى وتركنى أتحمل كل الشتائم والنقد » .

ولكن صديق الحكيم المستشار محمد سعيد العشماوى يبرئ د . حسين فوزى من تهمة نشره عودة الوعى في باريس بغير موافقة توفيق الحكيم ، فيقول في شهادته على « عودة الوعى » حينما سأله الفتى الصحفى ، وأجابته^(١) : « غير صحيح أن د . حسين فوزى قد نشر « عودة الوعى »

(١) من حديث خاص للمستشار محمد سعيد العشماوى مع المؤلف في ٦ يونيو ١٩٨٨

بدون موافقة توفيق بك الذى كان يمسرح المسألة ، فهو الذى أعطى نسخة من مخطوط « عودة الوعى » لحسين فوزى .. على اليقين أعطاها لحسين فوزى لينشرها ، وكان حسين فوزى صديقا مخلصا للحكيم ولم يكن يعمل شيئا يخلصه بغير رغبته ، وأنا كنت أجلس فى « سميراميس » ذات مرة ووجدتها يجلسان منفردين يتحدثان ، بما يسمح لى أن أقول أن حسين فوزى كان وسيط توفيق بك لى لدى ناشر فرنسى جاءه فى « سميراميس » . واتفق معه على نشر « عودة الوعى » فى باريس ، لأنه لم تكن لى توفيق الحكيم طريقة لنشر عودة الوعى هنا فى مصر أو العالم العربى » . واستدرك الفتى الصحفى : ولكن محمد المعلم صاحب « دار الشروق » نشر « عودة الوعى » بعد ذلك ؟

فقال المستشار : نشرها بعد أن نشرت فى باريس وبعد أن نشرت فى بيروت .

وسأله الصحفى : هل محمد المعلم هو الذى تبرع من نفسه بعرض نشر « عودة الوعى » ؟

قال المستشار العشماوى : كانت لمحمد المعلم اتصالات بالإخوان المسلمين ، وكان يهمهم نشر مثل هذا الكتاب فى مصر ، وكان هناك صديق مشترك لمحمد المعلم ولى ، قال لى : لو توفيق بك أتى بهذا الكتاب لنشره فى مصر سنأتى له بستة آلاف جنيه ، انتهوا إلى أربعة آلاف فى الطبعة الأولى . وأربعة آلاف فى الطبعة الثانية .

فلما قلت لتوفيق بك ، وجدها فرصة .. فالكتاب قد تسرب .. والمبلغ كبير . فأخذ أربعة آلاف فى أربعة آلاف يعنى ثمانية آلاف جنيه . وأضاف للطبعة الثانية إضافات قلت له عليها .. فأخذها وقال لى ونحن نسير على الكورنيش أنه أضاف ما اقترحت عليه ، وراح يقرؤه لى ، ونشره فى الطبعة الثانية » .

ومع ظهور عودة الوعي أولاً في باريس مترجمة إلى الفرنسية ، ثم ترجمتها إحدى الصحف البيروتية إلى اللغة العربية لتشرها .. يكمل ابراهيم فرج رسم صورة وقائع هذا الحدث فيقول : « عندما علم بذلك فؤاد سراج الدين (سكرتير حزب الوفد القديم ورئيس حزب الوفد الجديد بعد ذلك) وكان وقتها بالصدفة يصطاف في لبنان فأجرى اتصالات بالمسؤولين في الصحيفة اللبنانية واستطاع أن ينتزع منهم مبلغ ألف جنيه كحقوق نشر لتوفيق الحكيم ، وعندما عاد فؤاد سراج الدين إلى القاهرة دعا توفيق الحكيم لتناول طعام الغداء وحكى له ما حدث فعلق توفيق الحكيم على ذلك بقوله : إنهم يسرقونني » .

ولم يكن أمام توفيق الحكيم بعد « نشر عودة الوعي » خارج مصر سوى أن يتحمل مسئوليتها ويواجه عواصفها وروعها ، وشجعه على نشرها في مصر الكاتب الصحفي أحمد بهجت وقال له : إن نشرها في مصر يهم الإخوان المسلمين والناشر على استعداد لأن يدفع لك عشرة آلاف جنيه ، ولما جاءه الناشر المصري « محمد المعلم » صاحب دار الشروق ليشتري منه حق نشر « عودة الوعي » وضع أمامه شيكا بألفان من الجنيهات مقابل السماح له بنشرها ولكن الحكيم طلب عشرة آلاف جنيه طبقاً لما قاله له أحمد بهجت ، ويبدو أن أحد الصحفيين كان قريباً من مكتب الحكيم بالأهرام وسمع بذلك فنشر في صحيفته أن الصفقة التي تواطأ فيها الحكيم مع اليمين ثمنها عشرة آلاف جنيه ، وأراد الحكيم أن يبرر أخبار هذه المساومة التي تسربت أخبارها فقال : إنه أراد تعجيز الناشر حتى لا ينشر عودة الوعي في مصر ، غير أن الاتفاق كما يؤكد الحكيم قد انتهى إلى ألفان من الجنيهات ، ولكن إبراهيم فرج الذي أبرم العقد يؤكد هو الآخر أن توفيق الحكيم قد حصل على ثلاثة آلاف جنيه . ومهما يكن فإن الحكيم لم يجد بداً من الموافقة على نشرها في مصر ،

فذلك أفضل بالنسبة له وهو لم يتعود أن يتنكر لشيء كتبه أو قاله ، ثم إنه من الأفضل له أن يستفيد بحقوقه المادية عن نشر عودة الوعي في مصر ، ولم يشأ أن يتمسك بمبلغ معين عن حقوق نشرها ، فقد تسربت عودة الوعي أو هكذا قال الحكيم ، ونشرت خارج مصر وما أسهل على الناشر المصرى أن ينقلها ويعيد نشرها ، ويأطول بال المحاكم إذا فكر الحكيم في رفع قضية يطلب فيها حقوقه ، لذلك رأى الحكيم أن يرضى بما قسم له فإن أحدًا لم يصدقه ولن يصدقه ممن هاجموه في أنه لم يكتب عودة الوعي طعنا في الثورة أو انتقاما من عبد الناصر، فهو أولى وأحق بحقوقه عن نشر « عودة الوعي » مادام يتحمل مسئوليتها أمام التاريخ .

ويدافع الحكيم عن نفسه بأن للكاتب الحق في أن يعيد النظر في بعض المواقف أحيانا على ضوء توفر معلومات جديدة لم تكن معروفة له من قبل ، ولم تنفع الحكيم أى تبريرات واستمر الهجوم عليه ، حتى أنه فوجئ بامتداد الغضب عليه إلى داخل بيته ، فقد خاصمته زوجته بسبب « عودة الوعي » ، رغم أنها كانت هى التى أكدت عليه ألا ينحني أمام عبد الناصر حين يتسلم منه « قلادة النيل » التى منحها الزعيم للمفكر ردا على مهاجميه ، الذين أرادوا أن يسلبوه « حماره » وينسبونه إلى أديب أسباني ، كما كانت القلادة تعبيرا عن تقدير الزعيم عبد الناصر لفكر الحكيم الذى تأثر به خاصة في « عودة الروح » .

ولما رأى الحكيم غضب زوجته منه قال لنفسه أنه لا بد قد جرح عبد الناصر ، فأعاد قراءة « عودة الوعي » مرة أخرى وكان في نيته أن يحذف أى جملة في الكتاب فيها مساس بعبد الناصر ، ولكنه بدا مقتنعا أنه لم يمس عبد الناصر فيما كتبه ، وإن كانت هناك انتقادات لنظام حكمه . واستمرت العاصفة تتصاعد ضد توفيق الحكيم فأراد الاستنجاد

بصديقه المستشار سعيد العشماوى للحصول على وثائق التحقيقات الخاصة بلطفى الخولى وصحبه ، بخصوص جدل حدث حول توسط الحكيم لكى لا يبعد محمد حسنين هيكل عن الأهرام لكى يصبح وزيرا ، وكتب الحكيم بذلك خطايا إلى عبد الناصر ، يقول له فيه إن هيكل الكاتب أفضل له من هيكل الوزير ، وتسرب خبر الخطاب ، وكانت له تداعيات أدت إلى التحقيق فى الأمر ، مما جعل الحكيم يحاول الحصول على وثائق التحقيق ليستشهد بها ، على أنه لم يكن من الممكن أن يكتب كتابه وينشره فى عهد عبد الناصر ، لأنه إذا كانت رسالة قد كتبها بشكل شخصى من المفكر إلى الزعيم ، قد تم تحويلها إلى النيابة ، وحقق مع ناس وسجنوا بسببها ، فماذا كان سيكون عليه الموقف لو نشر « عودة الوعى » فى تلك الفترة ؟ وسأله التلميذ ما الذى كان يمكن أن يحدث لو نشرت عودة الوعى فى عهد عبد الناصر ؟

فقال الحكيم : لو حدث ذلك لأرسل إلى فرقة ضرب نار ! وطلب الحكيم من المستشار العشماوى أن يحصل له على وثائق التحقيق مع لطفى الخولى وصحبه ، فطلب منه المستشار بالتالى أن يكتب خطابا بما يريده ويوجهه إلى وزير العدل ، الذى أشر بالموافقة ، فجاء كتاب الحكيم « وثائق فى طريق عودة الوعى » ، وقد أحس اليسار بالذات أن توفيق الحكيم هو أشبه بقائد كبير فى معركة قد انتقل من موقعه إلى المعسكر المعادى للثورة ، وأصبح نجما من نجومه ، ولم يكن الجميع ، إلا قلة نادرة على استعداد لأن يصدقوا حسن نواياه .

وكلما رأى الحكيم ، « عبدالجيد محمد عبد الرازق » ، يتذكر « فلاح عودة الوعى » ، وتداعيات تلك الفترة ، ثم لا يلبث إلا أن يطوى هذه

الصفحة ليرحب بضيفه ويقوم بالواجب نحوه ، بل إن تحية الحكيم تمتد إلى أولاد عبد الجيد ، كلما جاء أحد منهم إلى القاهرة ، فيقضى ليلة أو ليلتين أو أكثر ، في ضيافة الحكيم ، الذى يسأل أولاد « عبد الجيد » عن أبيهم : كيف حاله ؟ لماذا لا يأتى ؟ لقد غاب عنا كثيرا هذه المرة . وكحبه لأبيهم كان يحبهم ، فقد تعرف عليهم جميعا ، عندما كان « عبد الجيد » يستشيريه فى أمور دراستهم ، فمن لم يقتنع برأى أبيه منهم ، أتى به إلى القاهرة ليستمع إلى رأى الحكيم بنفسه ، ويوصيه : مثلما يقول لك البك افعل فأنت لن تعرف مصلحتك أفضل منه .

له ابن أسماه جمال ، تيمنا وحبا لاسم جمال عبد الناصر ، بعد أن حصل على الاعدادية بمجموع كبير طمع فى دخول الثانوى العام ، ولكن والده عبد الجيد ، قال له :

أنت رجل تؤمن بالعمل ولن تصلح للأعمال المكتبية .. لامستقبل لك إلا فى التعليم الفنى .. صناعى سيارات .. جرارات .. خراطة .. تجارة .. شغل ينفعك تستخدم فيه عقلك ويديك .. إنما لو اشتغلت على مكتب لن تستطع أن تستغل طاقات عقلك ويديك .. وانت يابنى فلاح يجب أن تعتمد على طاقاتك دون أن تعطلها بالجلوس على مكتب ، ولذلك فالتعليم الفنى أفضل لك .

ولكن « جمال عبد الجيد » لا يقتنع بكلام والده ، ويصعب عليه أن يضحى بمجموعه الكبير فى الإعدادية دون أن يدخل الثانوية العامة ، فقال له والده :

تعال معى إلى القاهرة والبيه - توفيق الحكيم - هو الذى يحكم بيننا ، والذى ينصحك به أنا موافق عليه ، ، ولم تكن وجهة نظر الحكيم لتختلف مع وجهة نظر عبد الجيد عندما شرحها للحكيم الذى قال له « هذا هو

الرأى الصحيح وأنا موافك عليه » ، فاقنع جمال ونجح فى دراسته وحصل على دبلوم صناعة ، قسم سيارات .

أما « مجدى » فقد كان أزهرىا دخل كلية الشريعة والقانون ، ولكن يبدو أنه وجد صعوبة فى دراستها ، فأراد أن يحول منها إلى كلية أخرى سهلة الدراسة والنجاح ، فقال له أبوه عبد الجيد لو تركت كليتك ستكون إنساناً ضعيف الإرادة غير قادر على تحمل الأمور الصعبة ، والرأى لك فى النهاية لكن بعدما نأخذ رأى البية ونستشيره فى الموضوع ، فكان رأى الحكيم : « لا يامجدى لا تترك كلية الشريعة والقانون لازم تحبها وتنجح فيها ليس من أجل نفسك فقط ولكن من أجل بلدك » ، وأهداه الحكيم أجندة وكتب له متمنياً له الحياة الموفقة لخدمة نفسه وأهله ووطنه ، ونزل « مجدى » على رأى الحكيم وكان عند حسن ظنه به .

ولما أراد « شعبان » أن يسلك سلك التعليم العام كانت رغبة والده أن يتخصص فى الدراسة الزراعية ، ليساعده ويساعد إخوته الفلاحين الذين لم يتعلموا ، فيكون بتعليمه الزراعى إضافة علمية لإخوته بخبرتهم ، ولم يقتنع « شعبان » إلا بعد أن سمع من الحكيم موافقته على رأى أبيه : لازم يا شعبان يكون فيه واحد فى إخوانك « زراعى » يدرس الزراعة من الناحية العلمية وتساعد إخوانك الفلاحين .

وعندما وضعت زوجة عبد الجيد مولوداً جديداً وكان حلو الملامح والتقاطيع ، رأت أسماء البسطامى أم الحكيم أن تطلق عليه اسم ابنها توفيق ، ووجد هذا الاقتراح ترحيباً وقبولاً من عبد الجيد وزوجته ، وكان عبد الجيد يقول للحكيم : هذا الولد اسمه على اسمك وانت ملزم به تشجعه ليكون حاجة كبيرة مثلك » ، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه ، فقد تعثر توفيق عبد الجيد عبد الرازق ، فى دراسته ولم يستطع أن

يسير فيها فخرج وهو في المرحلة الابتدائية وانضم إلى أخيه « محمد » ،
يساعدان والدهما في زراعة الأرض ، « محمد » يقود الجرار الزراعى ،
وتوفيق يرعى الأرض بفأسه ومحراثه ، ولم يغضب الحكيم لأن سَمِيَهُ لم
يحقق ما كانت ترجوه منه أسرته بتسميته باسم المفكر الكبير ، بل إنه
قال : من الأفضل إن توفيق ينتج في أرض يعرفها ويحبها ويرتبط بها ،
ويخرج منها أسرارها وخيراتها ، فيستجيب لها وتستجيب له ، وإذا نجح في
أن يكون فلاحاً واعياً بأرضه ورسالته فهو لا يقل قيمة عن أى عالم من
العلماء في تخصصه ، وكل إنسان مهياً لما خلق من أجله .

وهكذا كانت علاقة الحكيم بناظر أرضه عبد الجيد ، وأولاده ، يشعرهم
كأنهم جزء من أسرته ، وكان الحكيم يقول لزوجته : « عبد الجيد »
وعياله جزء منا « فكانت تطمئنه على طعامهم وشرابهم ونومهم خلال
وجود أحدهم في بيت الحكيم ، وكانت السيدة زوجته تعطيهم نقوداً ، فقد
كانت هى التى تتولى المسائل المالية ، ولم تك تترك عبد الجيد وأولاده دون
أن تسألهم عن حاجتهم وتطمئن على رضاهم ، وكان الحكيم رغم أن له
طعاماً مخصوصاً بحكم السن ، فإنه كان يطلب أن يتذوق من طعام أهل
البيت وزواره مشاركة معنوية منه للمرتبطين به ، ولضيوفه ، ويقول لهم
« الله .. طعامكم حلو .. بالهنا والشفاء » .

ولم يكن الحكيم ينسى أن يوصى عبد الجيد أن يأتي له بالذرة
الخضراء ، والبقول الأخضر ، حيث يفضلها الحكيم ويستمتع بأكلها .
وكانت عادة سنوية ، « البقول » يأكله ، الحكيم وهو أخضر ناضج شهى ،
أما الذرة فهو لا يفضل شيه ، وإنما توضع أربعة أو خمسة « كيزان » على
النار في ماء وملح ، حتى يغلى الإناء بما فيه ، ثم يأكله الحكيم مسلوفاً ،
ولقد اعتاد أهل بيته أن يفعلوا مثله ، وكان عبد الجيد حريصاً على أن
يأكل الحكيم الذرة والبقول الأخضر قبل أن يأكله أحد من الناس .

لقد كان عبد الجيد يحب الحكيم ، وفي آخر لقاء لها قبل مرض الحكيم وانتقاله إلى المستشفى بشهر واحد ، كان الحديث بينها يدور في أمور الدنيا والآخرة ، وكأن الحكيم يشعر بقرب انتقاله من الدنيا إلى الآخرة ، وعندما علم عبد الجيد بخبر وفاة الحكيم ، وقبل أن يتصل به أحد كان قد وصل إلى القاهرة ما بين الثانية والنصف والثالثة بعد منتصف نفس ليلة رحيل الحكيم ، لقد شعر عبد الجيد كأن إنساناً عزيزاً عليه قد فقده ، وهو اليوم حين يدخل من باب العمارة التي يسكنها الحكيم يشعر بالحزن ، ويتضخم حزنه حينما يقف على باب الشقة يدق جرس بابها ، وبعد أن يدخل يشعر بحالة اكتئاب نفسى لأنه لن يعد يرى الرجل الذى أحبه .